

اليزيدية ومنشأ نحلتهم

أحمد تيمور باشا

اليزيدية ومنشأ نحلتهم

اليزيدية ومنشأ نحلتهم

تأليف
أحمد تيمور باشا



اليزيدية ومنشأ نحلتهم

أحمد تيمور باشا

رقم إيداع ٧٦٩٩ / ٢٠١٤
تدمك: ٧ ٧٨٤ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ +   **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: خالد المليجي.

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيِّد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فهذه رسالة في اليزيدية وبيان منشإ نحلتهم، والكشف عن غامض أمرهم، كنَّا نشرناها موجزة في مجلة المقتطف.[1] ثم عَنَّ لنا تجريدها بعد تهذيبها وضمِّ زيادات كثيرة إليها، وقد قسمناها إلى فصول بدأنا بالتعريف بهم وبعقيدتهم وبيزيد الذي ينتسبون إليه، ثم أتينا على أخبار شيخهم مُحْدِث طريقتهم ومكوِّن طائفتهم وأخبار الزعماء من آله ذوي الأثر في هذه النحلة، وما تقلَّبت فيه من الأطوار، وعرض لنا أثناء التكلم عنهم تحقيق أمر الزاوية العدويَّة بالقرافة الصغرى المدفون بها أحدهم، فاضطررنا إلى التعريج بالقارئ عليها وبَعُدْنا به قليلًا عن المقصد، وعُذْرنا في ذلك أننا لم نرَ من تقصَّى أمرها مثل ما تقصَّيناه، مع ما لهم من الصلة بها، وكنا عثرنا على أخبار منتثرة لثُلَّة من عترتهم لا ينتحلون نحلتهم ولا يمُتُّون إليهم إلَّا بواشجة القرْبى، فرأينا من تمام الفائدة ألا نخلي هذه الرسالة من ملخَّص تراجمهم، ثم أخذنا فيما قصدناه من بيان أصل هذه العقيدة وبدء الانحراف فيها، وما طرأ عليها بعد ذلك من التبديل والزيادة والنقص ومنشإ اعتقاد القوم في يزيد وفي الشيطان؛ مستمدِّين من الله تعالى التوفيق والتسديد.

---

[1] ج٤٨ ص٥٣.

فصل في التعريف بهم

اليزيدية طائفة من الأكراد يسكن أكثرهم في جهات الموصل وولاية أرَوَان الروسية، ومنهم طوائف في نواحي دمشق وبغداد وحلب، وهم من أغرب طوائف المبتدعة بدعةً؛ يدينون بعبادة الشيطان ويقولون بالتناسخ، ولهم في كتم نحلتهم والاحتفاظ بأسرارهم مبالغة شديدة طوت أمرهم عن الناس زمنًا، ثم أُتيح لبعض من خالطهم من روَّاد الإفرنج وغيرهم كشف القناع عن كثير من دخائلهم، ولكن وقع في عباراتهم من الاختلاف ما لا بدَّ من وقوعه في كل أمر يُحاط بالخفاء والكتمان.

وأوَّل من تصدَّى للبحث عن أمرهم من أصحاب المجلات العربية — فيما نعلم — صاحبُ مجلة الجنان[١] التي كانت تصدر في بيروت، ثم نشرت مجلة المقتطف[٢] فصلًا ملخَّصًا مما حققه عنهم أحد روَّاد الإفرنج بعدما ثَوَى فيهم وعاشرهم دهرًا. ثم نشرت مجلة الضياء[٣] فصلًا عنهم لا يخرج في جوهره عما في المقتطف، وإنْ باينه في بعض المواضع بشيء من الاختلاف والزيادة والنقصان، ثم نشرت مجلة المشرق[٤] فصلًا آخر كان أوفى مما تقدمه في استقصاء أخبارهم، وعثر أحد الفضلاء في الموصل على نسخة مخطوطة باللغة العربية من كتابيهم «الجلوة» و«مصحف رش»، فنشرهما بنصيهما في إحدى المجلات الأمريكية مع الترجمة الإنكليزية، وعثر أحد علماء المشرقيات بالنمسة على

---

[١] ج٧ ص٥٢٥.

[٢] ج١٣ ص٣٩٣.

[٣] ج١ ص٧٠٥.

[٤] ج٢ ص٣٢ و١٥١ و٣٠٩ و٣٩٥ و٥٤٧ و٦٥١ و٧٣١ و٨٣٠.

نسخة منها بالعربية والكردية، فطبعها بالنصين والترجمة النمسية في ڤينة، فازداد أمرهم بطبعها جلاء ووضوحًا، وأُميط اللثام عما تضارب فيهم من الأقوال في الفصول المنشورة في المجلات المتقدم ذكرها.

غير أن القول في منشإ هذه النِّحلة وأول مبتدع لها، وما تقلبت فيه بعد ذلك من الأطوار حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن لم يزل غامضًا ملتبسًا، وكل ما أوردوه عنها في ذلك جاء مضطربًا مبتورًا لا يصدر عنه الباحث بغَناء، وهو ما قصدنا البحث فيه في هذه الرسالة بعد أن نلخص من عقائدهم ما يتوقف عليه اطِّراد البحث ويمثِّل للقارئ صورة مجملة منهم.

فصل في ملخص عقيدتهم

للقوم كتابان كما ذكرنا؛ أحدهما: كتاب الجلوة،[1] وهو يتضمن ما خاطب به الباري تعالى عباده، والمقصود بهم اليزيدية، وكلامًا في قِدَمه تعالى وبقائه وقدرته ووعده ووعيده، وذكر القول بتناسخ الأرواح، وفيه أن الكتب التي بأيدي الخارجين، أي أهل الأديان المعروفة، ليست كما أُنزلت، بل بدَّلوا فيها وحرَّفوا، فما وافق منها سنن اليزيدية فهو المقبول، وما غايرها فمن تبديلهم.

والثاني مصحف رش، أي الكتاب الأسود، وفيه حديث خَلْق السماوات والأرض وما فيها من بحار وجبال وأشجار، وخَلْق الملائكة والعرش وآدم وحوَّاء، وإرسال الشيخ عادي بن مسافر من الشام إلى لالش، وما كان من نزول طاووس ملك (أي الشيطان) إلى الأرض وإقامته ملوكًا لليزيدية، ومقاومة اليهود والنصارى والمسلمين والعجم لهم، وفيه أن كافَّة الطوائف البشرية من نسل آدم وحوَّاء، وأما شيث ونوح وأنوش، وهم آباء اليزيدية الأوَّلون، فمن نسل آدم فقط، وأصلهم من توءمين ذكر وأنثى ولدهما بإحدى الخوارق، وأن طوفانًا أتى على اليزيدية بعد طوفان نوح، مضى عليه الآن سبعة آلاف سنة، كان ينزل في كلِّ ألف سنة منها إله من السماء يشرِّع لهم الشرائع ويسنُّ السنن، ومن هؤلاء الآلهة السبعة يزيد الذي ينتسبون إليه، أما رئيسهم وأوَّلهم فالشيطان المعبَّر عنه

[1] سيأتي في ترجمة شيخهم الشيخ حسن أنه صنَّف كتابًا اسمه الجلوة لأرباب الخلوة، ولا ريب في أنه غير هذا الكتاب الذي بأيدينا؛ فإن الرجل كان على رقَّة دينه ذا عقل ودهاء وعلم وأدب، لا ينحط قلمه إلى مثل هذا السخف.

عندهم بطاووس ملك، ومرتبة هؤلاء الآلهة دون مرتبة الإله الأعظم الواحد القهَّار الفعَّال لما يريد.

وفي هذا الكتاب أيضًا شرائعهم وما أُحِلَّ لهم وما حُرِّم عليهم في الزواج وغيره، وشرح أمر الطواف بسناجقهم (أي أعلامهم) في البلدان والقرى لجمع الصدقات، وزيارتهم لقبر الشيخ عادي، وما يفعلونه في عيد أوَّل السنة من قطف النَّوْر الأحمر وذبح الذبائح وإطعام الفقراء وزيارة القبور.

وفي كلا الكتابين من التلفيق والخبط والخلط ما فيه، وتمتاز نسخة النمسة بالنصِّ الكرديِّ فيها، وتختلف عنها الأمريكية ببعض زيادات وتقديم وتأخير في العبارات، وفيها ملحق فيه ما ليس في الكتابين من شرائعهم وأحوالهم وكرامات أوليائهم، وتفصيل مراتب أمرائهم وشيوخهم، وأغْنية مختلَّة الوزن والعبارة في مدح الشيخ عادي، وأخرى مثلها تتلى في صلاتهم، وصورة المحضر الذي كتبوه لَمَّا أرادت الدولة العثمانية تجنيدهم، وقد ذكروا فيه السبب الديني المانع لهم من مخالطة غيرهم.

هذا ملخَّص ما في الكتابين، اقتصرنا فيه على ما تدعو إليه الحاجة من خبر نِحلتهم، ومَن أراد المزيد فعليه بالرجوع إليهما، وهما بخزانتنا في فنِّ العقائد (رقم ٤١٨ و٥٠٥) وقد عثرنا على نبذة ناقصة الآخر ملحقة بنسخة عندنا من كتاب حسن التصرُّف لعلاء الدين القونويِّ، شرح التعرف لمذهب أهل التصوُّف للكلاباذيِّ، فيها شيء عن هذه العقيدة رأينا أن ننقله هنا؛ لأنَّا لم نقف لمؤلفينا على كلام عن هذه النِّحلة سوى شذرات يذكرونها بالمناسبة في بعض التراجم قليلة الفائدة، وهذا ما جاء بهذه النبذة ببعض تلخيص:

> بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، ربِّ يسِّر، اللهم ألهمنا الصواب وفصل الخطاب، وجنبنا العيَّ والغيَّ والارتياب، وهب لنا من لدنك رحمة إنك (أنت) الوهاب. أما بعد؛ فهذه كلمات في بيان مذهب الطائفة اليزيدية وحُكمهم وحُكم الأموال الكائنة بأيديهم، اعلم أنهم متفقون على أباطيل من اعتقادهم، وعقائد وأقاويل كلها مما يوجب الكفر والضلال؛ منها أنهم ينكرون القرآن والشرع ويزعمون أنه كذب، وأن مثل هذيانات وأقوال الشيخ فخر[٢] هي المعتمد عليها،

[٢] لعله فخر الدين المذكور في كتابهم الأسود المسمى «بمصحف رش» واسمه نورائيل المخلوق يوم السبت، وهو بزعمهم خالق الإنسان والحيوان والطير والوحوش.

والتي يجب أن يُتمسك بها، ولهذا يعادون علماء الدين ويبغضونهم، بل لو ظفروا بهم يقتلونهم أشنع قتل، كما وقع غير مرَّة، وإن وقعت الكتب الإسلامية في أيديهم يلقونها في القاذورات، بل يمزِّقونها ويتغوَّطون ويبولون عليها، وذلك مشهور لا سترة له، ومنها أنهم يحلُّون الزنا إذا جرى بالتراضي؛ أخبرني من أثق بخبره أنه رأى ذلك مسطورًا في كتاب لهم ينسبونه إلى الشيخ عدي، ومنها أنهم يفضِّلون الشيخ عديًّا على الرسول (عليه الصلاة والسلام) بمراتب، بل يقولون: إنه لا مناسبة بينهما، ومنها أنهم يصفون الله تعالى بصفات الأجسام؛ كالأكل والشرب والقيام والقعود وغيرها، ومنها أنهم يحكون حكايات في شأن الله تعالى ورسوله والشيخ عدي، تشتمل على تذلل الله تعالى ورسوله بين يدي الشيخ عدي، وعلى تحقير شأنهما والاستهزاء بهما وتضجُّره من تردُّدهما إليه واستغنائه عن صحبتهما وملاقاتهما، وغير ذلك مما يجب تنزيه شأن الله تعالى ورسوله عنه، ومنها أنهم يمكِّنون شيوخَهم من زوجاتهم ومحارمهم ويستحلُّون ذلك ويعتقدونه، ومنها أنهم يصرِّحون بأنْ لا فائدة في الصلاة، ولا بأس في تركها، وهي ليست واجبة، بل الواجب طهارة القلب وصفاؤه، ومنها أنهم يعتقدون أن اللالش[٣] أفضل من الكعبة، وأنْ لا فائدة من زيارتها لمن يقدر على زيارة اللالش. ومنها أنهم يسجدون للالش ولكل مكان شريف بزعمهم، وخصوصًا لمقام الشيخ عدي؛ فإنهم يدَّعون أن من لا يسجد له كافر، ومعلوم أن هذا السجود كالسجود للصنم والشمس، ومنها أنهم يعتقدون أن الشيخ عديًّا يجعل أمته يوم القيامة في طبق، ويحمله على رأسه ويذهب بهم إلى الجنة.

فهذه بعض أقوالهم وأفعالهم القبيحة، وقد تواترت عند من خالطهم وخَبَرَ أحوالَهُم، ثم إني سمعت غير واحد ممن كشف عن مضمرات صدورهم الخبيثة يقول: إنهم ثلاث فِرق؛ إحداها: غلاتهم الذين قالوا: إن الشيخ عدي بن مسافر هو الله نفسه؛ والثانية الذين يقولون: إنه ساهم الله تعالى في الإلاهية، فحكمُ السماء بيد الله تعالى وحكم الأرض بيد الشيخ عدي؛ والثالثة الذين يقولون: إنه ليس الله تعالى ولا شريكًا له، ولكنه عند الله تعالى بمنزلة الوزير الكبير لا يصدر

[٣] لالش قرية بالهكارية سكنها الشيخ عدي، والظاهر أن المراد بها في هذه النبذة معبد بها.

من الله تعالى أمر من الأمور إلا برأيه ومشورته، والظاهر أن مذهبهم يئول إلى الحلول، وهم يوالون النصارى ويصوِّبون بعض عقائدهم.

انتهى ببعض تلخيص وبأكثر لفظه.

فصل في يزيد الذي ينتسبون إليه

جاء في كتاب الملل والنِّحل ذِكرٌ لِفرقة من الإباضيَّة يُدْعَوْن باليزيدية، وهم أتباع رجل اسمه يزيد بن أبي أنيْسة، وهو غير المحدِّث المشهور، كان بالبصرة ثم انتقل إلى أرض فارس، وكان مِنْ زَعْمِهِ أن الله تعالى سيبعث رسولًا من العجم ويُنزِل عليه كتابًا جملة واحدة، ينسخ به الشريعة الإسلامية، ويكون على ملة الصابئة المذكورة في القرآن الكريم، وليست هي الصابئة الموجودة بحرَّان وواسط، فذهب بعض الأفاضل الذين بحثوا في أمر اليزيدية إلى أنهم من بقايا هذه الفِرقة، والظاهر أن الحامل لهم على هذا الرأي اتحاد الفِرقتين في النسبة وسوء المعتقد، والذي ظهر لنا بعد التحقيق أنْ لا علاقة بين يزيدية اليوم وتلك الفِرقة، وأنَّ أتباع ابن أبي أنيْسة قد لحقوا بغيرهم من الفِرق التي بادت وبادت معها آراؤها، أما يزيدية اليوم فنسبتهم إلى يزيد بن معاوية على التحقيق كما يقولون، ولكن لا على ما لفقوه من المزاعم، بل لما سنورده عليك بعد.

وزعمهم هم في يزيد على ما جاء في كتابهم الأسود «مصحف رش» أن معاوية أباه كان خادمًا لنبي الإسماعيليين، أي: نبيِّنا ﷺ، وحلق رأسه يومًا فجرحه وأكبَّ على الدم فلحسه بلسانه لئلا يسيل على الأرض، فقال له النبي: أخطأت وستكون ذرِّيتك أعداء لأمتي، فعاهده على أنْ لا يتزوج أبدًا، ولم يكن له بنون من قبل، ولكن الله سلط عليه عقارب لدغته في وجهه، وجزم الأطباء بموته إن لم يتزوج، فتزوج امرأة في الثمانين ليأمن حملها، فلما أصبحت إذا هي بنت خمس وعشرين فحملت وولدت يزيد أحد آلهتهم السبعة.

وذهب بعض الباحثين إلى أنهم من المجوس الداسنيين، هجروا حاضرتهم القديمة يَزْد، وسكنوا داسن، فقيل لهم اليَزْدِيُّون، ثم حرفته العامة وقالت: يزيديون، وهو زعم باطل لا يقوم عليه دليل.

فصل في الشيخ عادي

للشيخ عادي مقام غير منكور عند اليزيدية، وقبره اليوم كعبتهم التي يحجون إليها، وشيخهم الأعظم سادن مقامه، ولهم فيه مزاعم في مصحف رش؛ منها أن الله تعالى أرسله إلى أرض الشام إلى لالش، ومفهوم العبارة أن ذلك كان قبل خلق آدم عليه السلام، وهو من الخلط الذي لا تخلو منه عباراتهم.

وفيه أنهم عند إرسال السناجق (الأعلام) إلى القرى لجمع الصدقات يخرجونها من عند قبره باحتفال عظيم ورقص وغناء وزمر ونقر على الدفوف والطبول، ويعجنون من ترابه بنادق (كرات صغيرة) تحمل مع السناجق فتُفرَّق في القرى للتبرك بها، وعند عقد الزواج يأتون برغيف من دار شيخهم يتقاسمه العروسان، فإن لم يوجد اكتفيا بسفِّ شيء من تراب الشيخ عادي، وفي الزوائد الملحقة بالنسخة الأمريكية أنَّ مَن يموت منهم يجب أن يحضره شيخ من شيوخهم الذين في طبقة «الكوْجَك» ليضع في فيه شيئًا من هذا التراب قبل دفنه، وفيها أيضًا تفضيل مناسكهم عند زيارته، وأنَّها مفضَّلة عندهم على حجِّ البيت الحرام، مع التصريح بأنه مبتدع ملَّتهم ومرشدهم الأوَّل إلى طريقها.

وفي النسخة الأمريكية أيضًا نبذة عن الشيخ عادي، وردت قبل كتاب الجلوة كمقدِّمة له، نثبتها هنا دليلًا على مبلغ جهلهم بالتاريخ وخلطهم بين الأزمان المتفاوتة، ونموذجًا لما في كتابيهم من الركاكة وسوء التعبير، وهذا نصها: «زمان المقتدر بالله سنة مائتين وتسعين هجرية، كان منصور الحلَّاج وشيخ عبد القادر الكيلاني في ذلك الوقت ظهر إنسان اسمه الشيخ عادي من جبال الحكاريَّة،[1] أصله من أطراف حلب أو من بعلبك، جاء

[1] أي: الهكارية.

وسكن جبل لالش، قريب مدينة الموصل نحو تسع ساعات، والبعض قالوا: إنه من أهل حرَّان، ونسبته إلى مروان بن الحكم، فإنَّه شرف الدين أبو الفضائل عادي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان، وكان وفاته سنة خمسمائة وثمانٍ وخمسين هجرية، وقبره يزار الآن قرب قرية باعدرى[٢] من قرى الموصل، تبعد عنها إحدى عشرة ساعة، واليزيديَّة هم نسل الذين كانوا مريدين عند الشيخ عادي المذكور، والبعض منهم ينسبون إلى يزيد، ومنهم إلى الحسن البصري.» انتهى.

ولا بدَّ لنا قبل التعريف بهذا الشيخ من تصحيح اسمه، فإنه ورد في كتابيهم مرسومًا بزيادة ألف بعد العين، كما رسمناه متابعة لهم، وبه ورد أيضًا في مجلَّات الجنان والمقتطف والمشرق، وورد في مقالة مجلة الضياء بلفظ الشيخ الهادي، وجاء بها عنه ما نصه: «الذي في الأصل السرياني الشيخ أدي، وكذلك هو في النقل الفرنسوي، ولعل لفظه الصحيح عدي، إلا أننا رأينا بولياي رواه بزيادة هاء في أوَّله كما أثبتناه فيما نقلناه عنه قريبًا، وهو الذي اعتمدناه في سائر المقالة توحيدًا للتسمية.» انتهى.

قلنا: والصواب أنه «عدي»، كما ظنَّه في تصحيح لفظه.

وفي مقالة مجلة المشرق ذِكْر لأسطورة رواها رجلان من اليزيدية مصرَّح في آخرها بأن لفظ عادي محوَّل عن آدي، وخلاصتها أن مزار الشيخ كان في الأصل ديرًا للنساطرة، بني على اسم القديس أدَّى أو آدي، ثم تفرق رهبانه بإغواء طاووس ملك لهم، ودانوا باليزيدية، وظهر في إبَّان ذلك الشيخ عادي بدعوته، وأنبأ تلاميذه بأمر الرهبان قبل وقوعه، وأوصاهم بدفنه في مكان المذبح الأعظم بالبيعة بعد هدمه، فعملوا بوصيته وصاروا يحجُّون إلى قبره كل سنة، وحوَّلوا اسم آدي إلى عادي. انتهى.

قلنا: والقول بهذا التحويل ظاهر البطلان لما سيأتي، ولعل كاتب المقالة الفاضل كان متوقفًا فيه أو فيما ورد عن أصل المزار أيضًا، فإنه ختم عبارته بقوله: «فتأمل»

والصواب أنه الشيخ عدي بن مسافر أحد صوفية زمنه ومعتقديهم، ترجمه ابن خَلِّكان في وَفيات الأعيان، فقال عنه: «الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان، كذا أملى نسبه بعض ذوي قرابته الهكاريُّ مسكنًا، العبد الصالح المشهور الذي تنسب إليه الطائفة العدوية.» انتهى. وذكر ابن الورديِّ نسبته في تاريخه كما ذكرها ابن خلكان، وزاد فيها بعد مروان الأخير: «ابن الحكم بن مروان

---

[٢] أوردها ياقوت في معجم البلدان بلفظ باعذرا بالذال المعجمة، وقال عنها: مِن قرى الموصل.

الأمويُّ.» وفي هذه الزيادة نظر، وكذلك فعل السخاويُّ في تحفة الأحباب[٣] في سياقه لنسب قريبه زين الدين يوسف المدفون بمصر بالقرافة الصغرى، غير أنه ذكر بعد مروان الأخير: «ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.» ثم ساق نسبه إلى عدنان، وهذا هو المعروف في نسب مروان بن الحكم؛ فإن جدَّه أبو العاص لا مروان، وفي مسالك الأبصار لابن فضل الله العمريِّ ترجمة للشيخ عدي جاء فيها أنه «من ولد معاوية بن أبي سفيان.» وهو قول لم نره لغيره، والظاهر أنه أراد من ولد مروان بن الحكم فسبق قلمه إلى معاوية، والله أعلم.

ثم قال ابن خلكان عن الشيخ عدي: «سار ذكره في الآفاق وتبعه خلق كثير، وجاوز حسنُ اعتقادهم فيه الحدَّ، حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها وذخيرتهم في الآخرة التي يعوِّلون عليها. وكان قد صحب جماعة كثيرة من أعيان المشايخ والصلحاء والمشاهير؛ مثل: عقيل المنبجي وحمَّاد الدَّبَّاس وأبي النجيب عبد القاهر السُّهروردي[٤] وعبد القادر الجيلي وأبي الوفاء الحلواني، ثم انقطع إلى جبل الهكَّارية من أعمال الموصل، وبنى له هناك زاوية، ومال إليه أهل تلك النواحي كلها ميلًا لم يسمع لأرباب الزوايا مثله، وكان مولده في قرية يقال لها: بيت فار[٥] من أعمال بعلبك، والبيت الذي ولد فيه يزار إلى الآن، وتوفي سنة سبع — وقيل خمس — وخمسين وخمسمائة في بلده بالهكَّارية، ودفن بزاويته رحمه الله تعالى، وقبره عندهم من المزارات المعدودة والمشاهد المقصودة، وحفدته إلى الآن بموضعه يقيمون شعاره ويقتفون آثاره، والناس معهم على ما كانوا عليه زمن الشيخ من جميل الاعتقاد وتعظيم الحرمة، وذكره أبو البركات ابن المستوفى في تاريخ إربل، وعدَّه من جملة الواردين على إربل، وكان مظفَّر الدين صاحب إربل رحمه الله تعالى يقول: رأيت الشيخ عدي بن مسافر وأنا صغير بالموصل وهو شيخ ربعة أسمر اللون، وكان يحكى

[٣] تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، للعلامة محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢، طبع على حاشية الجزء الرابع من نفح الطيب بالمطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣٠٢.

[٤] في نسخة وفيات الأعيان المطبوعة ببولاق المنحي وعبد القادر الشهرزوري وكلاهما تحريف.

[٥] في نسخة وفيات الأعيان البولاقية بيت قار بالقاف، وهو تحريف صوابه بالفاء، وقد نص البقاعي على ذلك في عنوان العنوان في ترجمة الخطيب العدوي أحمد بن محمود بن عبد السلام من ذرية أبي البركات ابن أخي الشيخ عدي بن مسافر، فقال عنه: «البقاعي البيتفاري، بفتح الموحدة ثم تحتانية ثم فوقانية وفاء وقبل ياء النسبة راء، نسبة إلى بيت فار من البقاع.»

عنه صلاحًا كثيرًا، وعاش الشيخ عدي تسعين سنة رحمه الله تعالى.» انتهى ما ذكره ابن خلكان بنصه.

وترجمه ابن الفرات في تاريخه والمقريزي في خططه في كلامه على الزاوية العدويَّة، بما لا يخرج عما ذكره ابن خلكان، وترجمه الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاته الكبرى المسماة بلواقح الأنوار، وفي طبقاته الوسطى، فأثنى عليه في كلتيهما ثناءً كثيرًا، وذكر أنه أقام في أوَّل أمره زمانًا في المغارات والجبال والصحاري مجرَّدًا سائحًا، يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات، قال وهو أول من قُصد بالزيارات وتربية المريدين الصادقين ببلاد الشرق، وقصده الناس من سائر الأقطار، ثم نقل جُملًا من مأثور أقواله في التصوُّف، وذكر له كرامات وخوارق إلى أن قال: سكن رضي الله تعالى عنه جبل الهكَّار، واستوطن بالس إلى أن مات بها سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ودفن بزاويته المنسوبة إليه، وقبره بها ظاهر يزار.

وذكر ابن الأثير وأبو الفداء واليافعيُّ أن وفاته كانت سنة سبع وخمسين وخمسمائة، ومثله في تاريخ ابن الورديِّ، إلا أنه نقل أيضًا عن كتاب بهجة الأسرار لنور الدين اللخميِّ، أنها كانت سنة ثمان وخمسين، وأن أصله من حوران، وأطنب ابن الورديِّ فيه وفي وصف زهده وتقشُّفه وكراماته في كلام نَقَل أغلبه الشعراني في طبقاته، وفي مختصر تاريخ الإسلام للذهبيِّ في حوادث سنة ٥٥٧ ما نصه: «وفيها مات شيخ العارفين عدي بن مسافر الهكَّاريُّ الزاهد وقد قارب التسعين.» وترجمه ابن الفرات في وفيات سنة ٥٥٧، إلا أنه قال أيضًا عن وفاته: «وقيل كانت وفاته في سنة خمس وخمسين.» ومثله في مسالك الأبصار لابن فضل الله، ونصُّ عبارته: «وتوفي سنة سبع — وقيل سنة خمس — وخمسين وخمسمائة.»

وقول الشيخ الشعراني: «واستوطن بالس إلى أن مات بها»، تحريف في نسخة الطبقات الكبرى؛ لأن بالس بلدة بالشام بين حلب والرقة على ما في معجم ياقوت، فأين هي من بلدة الشيخ عدي التي سكنها بالهكَّارية؟ والذي في طبقاته الوسطى «لاكش» بلام فألف وكاف، وكلاهما فيما ظهر لنا تحريف عن لالش، وهي الواردة في النصين العربي والكردي من «مصحف رش»، إلا أنها وردت في بعض المواضع من النصِّ الكرديِّ بلفظ لايش بالمثناة التحتية بدل اللام، وبه وردت أيضًا في مقالة مجلة المقتطف عن اليزيدية، والصواب أنها بلامين، وبهما وردت في نسخة تحفة الأحباب للسخاوي. وقد ذكرها ياقوت في معجمه بلفظ «ليلش» وقال عنها: قرية في اللِّحْف من أعمال شرقي الموصل، منها الشيخ عدي بن مسافر الشافعي شيخ الأكراد وإمامهم وولده.

وفي شذرات الذهب لابن العماد ترجمة «للشيخ عدي»، أثنى عليه فيها ثناءَ مَن ترجمه قبله، وذكر تجاوز أصحابه الحدَّ في اعتقادهم به حتى زعموا أنه إذا ذُكر على الأسد وقف أو على البحر سكن، وإلى ذلك أشار الشيخ الصديق بن محمد المقري المعروف والده بالمدوخ في وسيلته الجامعة بقوله:

بجاه عدي ذلك ابن مسافر   به تسكن الأمواج في لجج البحر
وإن قلته لليث لم يخطُ خطوة   ولا الشبر من قاع ولا القاع من شبر

ووقفنا في جزء قديم من تاريخ عندنا لم نعلم اسمه ولا اسم مؤلفه على حادثة وقعت سنة ٦٥٢ لأصحاب الشيخ عدي، نبش فيها قبره وأحرقت عظامه، وهذا نصُّ العبارة: «في هذه السنة جرت بين أصحاب الشيخ عدي بن مسافر وأصحاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل محاربة، كان سببها أن بدر الدين كان كثير التثقيل على أولاد الشيخ عدي، ويكلفهم مالًا على وجه المساعدة، فأطلقوا ألسنتهم فيه، فأرسل طائفة من عسكره إليهم فقاتلوهم قتالًا شديدًا، فانهزمت الأكراد العدوية وقُتل منهم جماعة كثيرة، وأسروا منهم جماعة، فصلب بدر الدين منهم مائة وذبح مائة وأمر بتقطيع أعضاء أميرهم وتعليقها على أبواب الموصل، وأرسل من نبش الشيخ عديًّا من ضريحه وأحرق عظامه.»

هذا ما ظفرنا به من ترجمته، وهو عندنا أصل الطريقة اليزيدية، ومكوِّن هذه الطائفة، على ما أدَّانا إليه البحث كما سيأتي تفصيله.

فصل في الشيخ حسن

ذُكر اسمه في الكتاب الأسود «مصحف رش» على أنه ثاني الآلهة السبعة عندهم، ويسمى أيضًا دردائيل، وورد في الزيادات الملحقة منعوتًا بالبصريِّ، وأن له قبَّة في القباب التي حول قبر الشيخ عدي، ومن نسله شيخهم الأعظم، وقد بحثنا في كتب التراجم عمن اشتهر بالحسن البصري — غير التابعي المشهور — فلم نعثر إلا على واحد، ولكن ليست له صلة بهم، ترجمه ابن تغرى بردى في المنهل الصافي فقال: «جعفر بن علي بن جعفر بن الرشيد الشيخ المسند المعمَّر شرف الدين الموصليُّ المقريُّ المعروف بالحسن البصريِّ، مولده بالموصل في سنة أربع وستمائة، وكان شيخًا فاضلًا عارفًا حافظًا للأخبار والشعر والأدب، ذكره الحافظ علم الدين البرزاليُّ وقال: سمع من السُّهرورديِّ كتاب العوارف بالموصل، وسمع بدمشق من ابن الربيديِّ وبمصر من ابن الجميزيِّ وبالثغر من ابن رواح، وتوفي بدمشق سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة رحمه الله.» قلتُ: وصاحب الترجمة يلتبس على مَن لا يعرف التاريخ بالحسن البصريِّ التابعيِّ المشهور المتوفى سنة عشر ومائة. انتهى.

وأما الشيخ حسن المذكور في كتاب اليزيدية فلم ينعته أحد غيرهم بالبصري، وهو من آل عدي بن مسافر وأحد خلفائه عليهم، وفي زمنه دبَّ الفساد والزيغ فيهم، وله ترجمة في فوات الوفيات لابن شاكر، قال فيها عن نسبه: «الحسن بن عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر الملقَّب بتاج العارفين شمس الدين أبو محمد شيخ الأكراد، وجدُّه أبو البركات هو أخو الشيخ عدي.» وقد تقدم في نسب الشيخ عدي أنه عدي بن

مسافر بن إسماعيل[1] ... إلخ، فالصواب أن يقال في نسب الشيخ حسن: «وجده أبو البركات ابن أخي الشيخ عدي.» أو «وجده صخر أخو الشيخ عدي»، أي جده الأعلى. وفي تحفة الأحباب للسخاوي في ترجمة الشيخ عدي: «وظهرت له مناقب ومآثر هناك إلى أن كثر أصحابه وأولاد أخيه الشيخ العارف صخر بن مسافر، فتوفي الشيخ عدي هناك سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وتخلَّف بعده أخوه صخر، وتفرَّق أولاده في البلاد، وأقبل إليهم العباد فنزل منهم بالموصل الشيخ شمس الدين الحسن بن أبي المفاخر عدي بن أبي البركات بن صخر أخي عدي بن مسافر الملقَّب بتاج العارفين أبي محمد شيخ الأكراد. وجده هو أخو عدي بن مسافر.»

ثم قال ابن شاكر عن الشيخ حسن: «وكان شمس الدين من رجال العالم رأيًا ودهاء، وله فضل وأدب وشعر وتصانيف في التصوف، وله أتباع ومريدون يبالغون فيه، قال الشيخ شمس الدين الذهبي: بينه وبين الشيخ عدي من الفرق كما بين القدم والفرق، وقد بلغ من تعظيم العدوية له أنه قَدِم عليه واعظٌ فوعظه حتى رقَّ قلبه وبكى وغشي عليه، فوثب الأكراد على الواعظ فذبحوه، ثم أفاق الشيخ حسن فرآه يتشحط في دمه، فقال: ما هذا؟ فقالوا له: أيش هذا الكلب حتى يُبكي سيدنا الشيخ، فسكت حفظًا لدسته وحرمته، وخاف منه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فقبض عليه وحبسه ثم خنقه بوتر في قلعة الموصل خوفًا من الأكراد؛ لأنهم كانوا يشنون الغارات على بلاده، فخشي أن يأمرهم بأدنى إشارة فيخربوا بلاد الموصل، وفي الأكراد طوائف إلى الآن يعتقدون أن الشيخ لا بدَّ أن يرجع، وقد تجمعت عندهم زكوات ونذور ينتظرون خروجه، وما يعتقدون أنه قتل، وكانت قِتلته سنة أربع وأربعين وستمائة وله من العمر ثلاث وخمسون سنة.»

وترجمه أيضًا ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب، وساق نسبه كما تقدم، ونعته بشيخ العدوية الأكراد، وذكر عنه ما ذكره ابن شاكر، ثم أورد عبارة للذهبي عدَّد له ولجماعته فيها منكرات، وختمها بما معناه: «إن كان هذا طريق الجنة فأين إذن طريق النار؟»

[1] هذا ما أجمع عليه المؤرخون في نسبه، وجاء في مادة «هكر» من شرح القاموس للسيد مرتضى الزبيدي أنه: «عدي بن صخر بن مسافر» وعليه يصح ما قاله ابن شاكر غير أنه قول تفرَّد به الزبيدي مخالف للنصوص العديدة التي اطلعنا عليها.

وترجمه ابن طولون الحنفي الصالحي في ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر استطرادًا في ترجمة محمد بن موسى بن محمد العدوي، فذكر ما ذكره ابن شاكر في فوات الوفيات، وزاد في آخر الترجمة أنه اختلى ستَّ سنوات صنَّف فيهم كتاب الجلوة لأرباب الخلوة، وأنشد من شعره:

وصرت فردًا بلا ثانٍ أقوم به　　وأصبح الكلُّ والأكوان تفخر بي
وكلُّ معنايَ معناها وصورتها　　كصورتي وهي تدعى ابنتي وأبي

والظاهر أنه أقيم خليفة عليهم بعد أبيه عدي بن أبي البركات، أما أول خليفة عليهم بعد الشيخ عدي الكبير، فالذي يُعْلَم من عبارة السخاوي في تحفة الأحباب المتقدم ذكرها أنه أخوه صخر، وإذا صح هذا، فالظاهر أنه أقيم عليهم وهو في بلدتهم بيت فار بالبقاع بالشام، فإنَّا لم نقف على أنه هاجر إلى أخيه بلالش، والذي صرح به اللخمي في بهجة الأسرار في مناقب السيد عبد القادر الجيلي رضي الله عنه أن أول من أقيم خليفة على هذه الطائفة بعد الشيخ عدي ابن أخيه أبو البركات بن صخر بن مسافر، وقد ذكر السخاوي هجرته إليه بقوله بعد العبارة المتقدمة: «وقد نزل الشيخ أبو البركات بن صخر أبو هذه الذرية عند عمه عدي بن مسافر بالمكان المعروف بلالش في جبل الهكَّارية.» ويستخلص من ترجمته في بهجة الأسرار[٢] أنه هاجر إلى عمه الشيخ عدي من بيت فار من أرض بقاع العزيز إلى جبل هكَّار، وصحبه وخلفه بعد وفاته بزاويته بلالش، وكان الشيخ عدي في حياته يثني عليه ويقدِّمه ويقول فيه: «أبو البركات ممن دُعي في الأزل وكان من السابقين إلى الحضرة.» ويقول فيه أيضًا: «أبو البركات يخلفني.» وسكن أبو البركات بلالش إلى أن مات مسنًّا ودفن عند عمه، وقبره ظاهر يزار وتخرَّج عليه ولده عدي بن أبي البركات، وكان مثله في المناقب والفضائل. انتهى. وسائر ما في الترجمة مناقب وكرامات وكلمات مأثورة عنه في التصوف.

[٢] ترجمه في هذا الكتاب فيمن استطرد إلى تراجمهم من مشايخ الصوفية.

فصل في شرف الدين

لم يذكره اليزيدية في كتابيهم كما ذكروا الشيخ حسنًا، ولم نقف له على ترجمة في كتب التراجم، ولم نعلم من خبره إلا ما رواه ابن العبريِّ في تاريخ مختصر الدول، فقد ذكره عرضًا باسم شرف الدين محمد بن الشيخ عدي، في حوادث سنة ٦٥٥، فقال: «وفيها سيَّر السلطان عز الدين[١] رسولًا إلى خدمة هولاكو شاكيًا على بايجو[٢] نوين أنه أزاحه عن ملكه، فأمر هولاكو أن يتقاسما الممالك هو وأخوه ركن الدين. فظهر عز الدين فأتى إلى قونية، ومضى ركن الدين مع بايجو نوين إلى مخيَّمه، ولخوف عز الدين من بايجو نوين وجَّه مملوكه إلى نواحي ملطية وخَرْتَبِرْت[٣] ليستخدم له عسكرًا من الأكراد والتركمان والعرب، فوصل هذا المملوك، وسيَّر في طلب شرف الدين أحمد بن بلاس من بلد الهكَّار وشرف الدين محمد بن الشيخ عدي من بلد الموصل الكرديِّين فأتياه، فأقطع ابن بلاس ملطية وابن الشيخ عدي خرتبرت.»

ثم قال بعد أن ذكر مقتل ابن بلاس: «وأما ابن الشيخ عدي فرحل من خرتبرت ليتصل بالسلطان عز الدين، فأدركه أنكورك نوين وقتله ومن معه.» انتهى.

---

[١] هو عز الدين كيكاوس بن غياث الدين، من الملوك السلجوقية ببلاد الروم، وكان مقرهم قونية، وأخوه ركن الدين اسمه قليج أرسلان، وانظر خبر دولتهم في تاريخ ابن خلدون ج٥ طبع بولاق.

[٢] هو من أمراء المغل وقوادهم، وقد ورد اسمه في تاريخ ابن خلدون ج٥ ص١٧٢–١٧٤ بلفظ «بيكو» وورد في ص٥٤٢ من هذا الجزء بالجيم بدل الكاف، ولكنه حُرف بلفظ «بنجو» ويقال: إنه توانى لما طلبه هولاكو للمسير معه إلى فتح بغداد فاتهمه بالغدر والاستبداد، فلما انقضى أمر بغداد بعث إليه مَن سقاه السم فمات.

[٣] هي المعروفة الآن بخربوت.

وهو كل ما علمناه من خبره، والذي نرجحه أنه ابن طاغيتهم الشيخ حسن المتقدم ذكره قبله؛ لأن الشيخ عديًّا لم يعقب، وكان لحسن هذا ولد بهذا الاسم، وهذا اللقب سيرد في نسب زين الدين الآتي بعده، فإنه «زين الدين يوسف بن شرف الدين محمد بن شمس الدين حسن» ... إلخ، على ما نقش على باب زاويته، وذكره السخاوي في تحفة الأحباب، ولا يبعد أن يكون شرف الدين المذكور ولي الزعامة على هذه الطائفة بعد أبيه بالموصل. والله أعلم.

فصل في زين الدين وعز الدين

هما رجلان كبيران من آل عدي بن مسافر، لم تذكرهما اليزيدية في كتابيهم الجلوة والكتاب الأسود كما ذكروا الشيخ حسنًا، أما زين الدين فهو كما في تحفة الأحباب للسخاوي، في الكلام على تربته بالقرافة الصغرى، الشيخ الصالح العارف المحقق الربانيُّ شيخ مشايخ الإسلام، زين الدين أبو المحاسن يوسف بن شرف الدين محمد بن حسن بن عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن الحسن بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس، ثم ساق نسبه إلى معد بن عدنان، إلى أن قال: القرشيُّ الأمويُّ نزيل القاهرة.

والذي يفيده سياق هذا النسب أنه حفيد الشيخ حسن المتقدم ذكره، غير أن نعت السخاوي له بتلك النعوت يدلُّ على أنه كان في نظره مرضيَّ الطريقة، بعيدًا مما كان منطويًا عليه جدُّه حسن من المنكرات، ثم ذكر أنه توفي سنة ٦٩٧، وأن القبة التي على ضريحه وافق الفراغ من عمارتها في ربيع الأول سنة ٧١٥،[١] وأنه قدم إلى الشام فأُكرم وأُنعم عليه بإمرة، ثم تركها وانقطع على هيئة الملوك من اقتناء الخيول المسوَّمة والجواري والخدم والملابس، وعمل الأسمطة الفاخرة، ثم خاف على نفسه فترك ولده عز الدين هناك ودخل إلى القاهرة وأقام بها فأُكرم بها.

[١] الظاهر أن هذا تحريف بالنسخة، فإن المنقوش على باب هذه القبة سنة ٧٢٥ كما سيأتي.

وترجمه المقريزي في خططه في كلامه على الزاوية العدوية، وابنُ فضل الله العمري في مسالك الأبصار استطرادًا في ترجمة الشيخ عدي بن مسافر، وذكرَا أنَّه ابن أخيه.[٢]

وخلاصة ما قالاه عنه أنه وفد من الموصل إلى الشام فأُكرم وأُنعم عليه بإمرة كبيرة، ثم تركها وانقطع في قرية تعرف ببيت فار[٣] وانغمس في النعم والملاذِّ وعاش عيشة الملوك، وحُكي أن بعض نساء الطائفة القيمُرية[٤] كانت مغراة به مطنبة في تعظيمه متغالية في الاعتقاد بصلاحه، وأنفقت عليه أموالًا جليلة، وكانت غير مصغية إلى من يعذلها فيه، فاحتال أخصَّاؤها عليها بأن حملوها في قفَّة وأشرفوا بها عليه، وهو عاكف على المنكرات فما زادها ذلك إلا ضلالًا، وقالت: إنما يتدلَّل الشيخ على ربِّه! وضاعفت له الإنفاق.

قال ابن فضل الله: «وحكى لي شيخنا شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب رحمه الله تعالى، قال: بُعثتُ مع الأمير الكبير علم الدين سِنْجَر الدوادار؛ ليحلفه في أوَّل الدولة الأشرفيَّة[٥] فأتيناه وهو في قريته مثل الملك في قلعته؛ للتجمل الظاهر والحشمة الزائدة والفرش الأطلس وآنية الذهب والفضة والغَضَار الصيني وأشياء تفوت العدَّ، إلى غير ذلك من الأشربة المختلفة الألوان والأطعمة المنوعة، فلما دخلنا عليه لم يحتفل بنا، وأتاه الأمير علم الدين فقبَّل يده وهو جالس لم يقم له، فبقي الدوادار قائمًا قدَّامه يحدِّثه، وزين الدين يسأله لا هو يجلس ولا زين الدين يقول اجلس، ثم أمره بالجلوس فجلس على ركبتيه متأدبًا بين يديه، ثمَّ لَمَّا حلَّفناه أنعم علينا بجملة طائلة تقارب خمسة عشر ألف درهم.»

قلتُ: وقد كان تخلف منهم الشيخ عز الدين أميران وأُمِّر فبقي مدَّة أميرًا بدمشق ثمَّ بصفد ثم بدمشق، ثم ترك الإمرة وآثر الانقطاع وأقام بالمِزَّة، وكانت الأكراد تأتيه

---

[٢] في هذا تساهل؛ لأن بينه وبين جده صخر أخي الشيخ عدي أربعة آباء، ولكن من كان من ذرية شخص فهو ابنه.

[٣] هي قريتهم ببقاع العزيز قبل انتقالهم إلى لالش بجبل هكَّار.

[٤] القيمرية، وعبَّر عنهم ابن فضل الله في مسالك الأبصار بالقيامرة: جماعة من أعيان أمراء الأكراد منسوبون إلى قيمر بفتح القاف وسكون الياء وضم الميم، وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط، ولأحدهم المدرسة القيمرية بدمشق وحي معروف بهذه النسبة، وتسمى هذه المدرسة اليوم بمدرسة «القطط» ويلفظها عامة دمشق «القطاط» بفتح الأول والإشباع.

[٥] هي دولة الأشرف خليل بن قلاوون.

من كل قطر بصفايا أموالها تقربًا إليه، ومنهم على ما حُكي مَن كان يجلس بين يديه، ثم إنه أراد الخروج على السلطان وتبعه طوائف الأكراد من كل بلد وباعوا أموالهم بالهوان واشتروا الخيل والسلاح وآلات الحرب، ووعد رجالًا ممن تبعه بالنيابات الكبار، ونزل بأرض اللجون، وأتى السلطان خبرهم وأنهم على هذا لم يؤذوا أحدًا في نفس ولا مال، وإنما يبيعون أموالهم بالرخص ويشترون الخيل والسلاح بالغالي، فأمر تنكز نائب الشام بكشف أخبارهم وقص آثارهم، وأمسك السلطان من كان بالزاوية العدوية بالقرافة. إلى أن قال: «واختلفت الأخبار، فقيل: إنهم يريدون سلطنة مصر، وقيل: بل كانوا يريدون ملك اليمن، وقلق السلطان لأمرهم وأهمَّه إلى أن أمسك تنكز نائب الشام عزَّ الدين المذكور وأودع الاعتقال حتى مات، وفرَّق الأكراد، ولو لم يتدارك لأوشك أن تكون لهم نوبة.» انتهى. وفي خطط المقريزي أن إمساك عز الدين كان مدة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقال السخاويُّ: سنة ٧٣٣.

قلنا: والذي ذكراه عن الشيخ زين الدين، وما كان منطويًا عليه من المنكرات يخالف ما نعته به السخاويُّ من النعوت الجليلة، وكذلك حادثته مع الشهاب محمود وعلم الدين سِنْجَر، وحادثة افتتان إحدى القيمريَّات به، ذكر السخاويُّ أنهما وقعتا مع ولده عز الدين، واختلفت أقوالهم في عز الدين، فقال المقريزي وابن فضل الله: «وكان تخلف منهم الشيخ عز الدين أميران.» أي تخلف بالشام، فاقتصرا في التعريف به على جعله من الطائفة، وقال السخاوي: إنه ابن زين الدين، كما تقدم، ورأيت له ترجمة في الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر جاء فيها أنه ابن بنت الشيخ عدي، ونصها:

> أميران عز الدين الكردي ابن بنت الشيخ عدي قدم الشام فوُلِّي بها الإمرة، وكان قومه يأتون إليه من كل فجٍّ، ويتقربون إليه بالأموال، ثم شاع أنهم يريدون الخروج على السلطان، فأمسك الناصر من كان منهم بالقرافة، وكتب إلى تنكز بكشف أحوالهم، فأرسل إلى عزِّ الدين المذكور فسأله عنه فقال: يريدون أن ينفردوا بالملكة. فقال: وما السبب؟ فقال: هذا شيء تخيلوه في نفوسهم، فقال: لم لا تمنعهم؟ فقال: هم يعتقدون فيَّ وفي جميع أهل بيتي، ولكن حطَّني في القلعة يتقلل جمعهم، ففعل فتفرقوا وصاروا بعد ذلك يجيئون إلى البرج الذي هو فيه محبوس فيستنجدون له، وكان حبسه سنة ٧٣١، وكان حسن الشكل تامَّ القدِّ صبيح الوجه.

انتهى.

قلنا: والذي ذكره السخاوي في تحفة الأحباب وغيره من المؤرخين أن الشيخ عديًّ بن مسافر كان أعزب، وأن المرويَّ عند طائفته: «أنه سأل الله تعالى أن يجعل ذريته في أخيه صخر بن مسافر، فاستجاب الله دعاءه.» فكيف يتفق مع هذا أن يكون عز الدين ابن بنته؟ والظاهر أن في نسخة الدرر الكامنة التي وقفنا عليها تحريفًا، بأن يكون قوله: «بن بنت الشيخ عدي» محرَّفًا عن: «من بيت الشيخ عدي.» ولا سيما أن لفظ «ابن» ورد بالنسخة مرسومًا بغير ألف، ويسهل تحريفه عن لفظ «من»، والله أعلم.

ولعلَّ القارئ الكريم قد استشعر معنا من أخبار هؤلاء الزعماء أن هذه الطائفة الصوفية أخذت تتحوَّل في بعض العصور إلى عصابة ثورية نزَّاعة إلى المُلك، ولولا ما صُودمتْ به من الملوك والأمراء لكان لها شأن غير الذي كان، والظاهر أنهم كانوا يستميلون إلى عقيدتهم بعض عظماء الدولة؛ للاستعانة بهم على مآربهم وردِّ المكروه عنهم، فقد ذكر ابن الجزري[٦] في تاريخه عن الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي المتوفى بدمشق سنة ٦٩٤، أنه كان ممن ينتمون إليهم، وحكى عنه ظلمًا وجبروتًا وإعجابًا بالنفس مع تعفُّف عن أموال الناس وبيت المال، وذكر أنه كان متوليًا شدَّ الشام زمن الملك الظاهر «بيبرس»، وعزل ثم تولى شدَّ الصحبة في الدولة المنصورية،[٧] إلى أن قال: «وكان ينتمي إلى أصحاب الشيخ عديٍّ وانتفع به العدوية رحمه الله وإيانا.» ونذكر أننا وقفنا أثناء المطالعات على بعضِ مَن كانوا ينتمون إليهم أو ينتصرون لهم، ولكن فاتنا تقييدهم.

[٦] هو محمد بن إبراهيم بن الجزري المتوفى سنة ٧٣٩ كما في الدرر الكامنة، وعندنا من تاريخه جزء مصور بالشمس فيه من سنة ٦٨٩ إلى سنة ٦٩٩. وللأمير بكتوت المذكور ترجمة في المنهل الصافي لابن تغرى بردى، وأخرى مختصرة في تاريخ ابن الفرات ليس فيهما تعرض لانتمائه إلى هذه الطائفة.

[٧] أي دولة المنصور قلاوون كما في المنهل الصافي.

استطرادٌ لذكر الزاوية العدوية

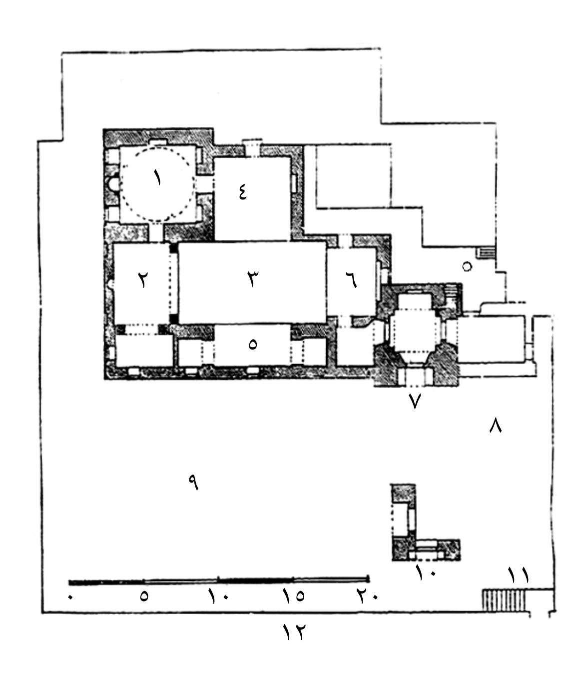
ولنرجع إلى الشيخ زين الدين وبقية أخباره، فنقول: إن الزاوية التي دفن بها بالقرافة الصغرى كانت تعرف بزاوية عدي بن مسافر[1] وبالزاوية العدوية، ثم عرفت بالزاوية القادرية لسكنى جماعة من ذرية سيدي عبد القادر الجيلي بها وتولِّيهم شئونها والنظر على أوقافها، وتعرف الآن عند العامة بجامع سيدي عُليٍّ، وقد ذكرها المقريزي في خططه باسم الزاوية العدوية، وقال: إنها بالقرافة تنسب إلى الشيخ عدي بن مسافر، ولم يتكلم عليها، وإنما ذكر ترجمة الشيخ عدي وخبر زين الدين وعز الدين أميران، وذكرها السخاوي في الضوء اللامع عرضًا في ترجمة بدر الدين حسن بن محمد بن عبد القادر القادري، فقال: «كان أسنَّ الجماعة المقيمين بزاوية عدي بن مسافر خارج باب القرافة الصغرى المشهورة الآن بزاوية القادرية.» وذكرها أيضًا باختصار في عدة مواضع من هذا الكتاب سيأتي بيانها، وذكرها علي مبارك باشا في خططه باسم «جامع القادرية»، غير أنه جعلها: «داخل باب القرافة بالقرب من مسجد السيدة عائشة النبوية رضي الله عنها.»، وهو وَهْمٌ بيِّنٌ سببه السهو فيما يظهر.

ولم تزل هذه الزاوية باقية إلى الآن خارج باب القرافة عن يمين السالك منه في شارع القادرية المسمى باسمها، والموصل إلى قرافة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وبها

[1] تقدم في ترجمة الشيخ عدي أنه مدفون بالهكَّارية من بلاد الموصل، وإنما نسبت هذه الزاوية إليه لنزول قريبه زين الدين وطائفة من أتباعه بها، وقد صرح بذلك السخاوي في كلامه على تربة زين الدين المذكور في تحفة الأحباب، فقال: «إن الشيخ عدي بن مسافر لم يكن بمصر ولا بالقرافة، بل هذه الذرية من أولاد أخيه صخر والشيخ عدي يعرف بالأعزب.»

أربعة إيوانات في ثلاثة منها قبور سيأتي الكلام عليها، وبالركن الجنوبي الغربي قبة بها ضريح الشيخ زين الدين يوسف المذكور، والعامة تسميه بسيدي «عُلَيٍّ» بالتصغير، والظاهر أنه محرف عن «عدي» بن مسافر، فإن بعض المتقدمين كان يعتقد أن هذا الضريح ضريحه بسبب نسبة الزاوية قديمًا إليه، وسماه علي مبارك باشا في خططه «عُليًّا القادري» تبعًا للعامة؛ لأنهم ينعتونه بهذه النسبة على توهُّم أن الزاوية سميت بالقادرية نسبة إليه، وكان على علي باشا أن يبيِّن خطأهم في ذلك؛ تمييزًا للصحيح من المزاعم من غير الصحيح، وتلقبه العامة أيضًا بقاضي الحقيقة، وتقيم له مولدًا كل سنة في شعبان، وكانت تقيم له «حضرة» كل أسبوع ثم أبطلت الآن، وقد رمَّمت لجنة حفظ الآثار العربية هذه الزاوية، وأعادت الباقي منها إلى ما كان عليه، وكان في شرقيِّها مصلًّى ومئذنة وأماكن أخرى ملحقة بها، زالت الآن ولم يبق منها غير باب قديم بقي منفصلًا عن البناء مطلًّا على شارع القادرية، وبينه وبين الزاوية ساحة كانت بها هذه الأماكن، وقد أحيط الجميع بسور قصير حديث البناء عليه درابزين من الحديد.

وهذا مصوَّرها نقلناه من مجموعة هذه اللجنة بعد أن رقمنا أماكنها بأرقام لبيانها:



وهذا إيضاح ما تدلُّ عليه هذه الأرقام:

(١) القبة وبابها من الإيوان الجنوبي، ويحيط بهذا الباب من الخارج في وجهته وعضادتيه إطار من الرخام منقوش بآيات كريمة، وفي جانبيه تحت العتب عن يمين الداخل منقوش: «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، لا إله إلا الله سيدي عدي ولي الله.» وعن يساره: «سيدي عدي الوسيلة إلى الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلَّم.» وبعض كلمات أخرى ذهبت من كلا الجانبين، وفوق هذا الباب من خارجه لوح منقوش فيه بالحفر: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. هذا مقام السيد الإمام القدوة شيخ شيوخ الإسلام، شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة، فريد عصره شرفتْ بأقدامه مصرُ، أوحد شيوخ المسلمين، زين الدين يوسف بن الشيخ محمد بن الحسن بن الشيخ عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر الأموي، نفع الله ببركاته المسلمين، وذلك في ربيع الأول سنة خمس وعشرين وسبعمائة.»[٢] وبحائط القبة من الأسفل إفريز بديع من قطع الرخام الملوَّن، وبوسطها الضريح وعليه تابوت من الخشب مكسوٌّ بِسترٍ أخضر مطرز بالحمرة والبياض، ومكتوب عليه بالتطريز الأبيض «مقام سيدي عُلَي بن عبد القادر الكيلاني» على ما هو معروف به عند العامة، وبأعلى القبة من الداخل طراز به كتابة بالقلم الجلي تتعذر قراءتها لارتفاعها، وكان على الضريح تابوت تاريخي من الخشب المصدَّف، بديع النقش منقوش به نسب الشيخ وتاريخ وفاته، احترق في الحريق الذي وقع بالقبة سنة ١٣٢٥، ولكن كان من حسنات الأستاذ يوسف أحمد[٣] على الآثار أنه نقل هذه الكتابة قبل الحريق، وهذا نصها: «هذا ضريح السيد الإمام العالم العارف الشيخ زين الدين يوسف بن السيد الشيخ شرف الدين محمد بن السيد الشيخ شمس الدين الحسن بن السيد الإمام الشيخ شرف الدين

[٢] هو تاريخ عمارة القبة الذي ذكره السخاوي في تحفة الأحباب بقوله: «وبناء هذه التربة والقبة التي على ضريحه من أعاجيب البناء، ووافق الفراغ من العمارة في ربيع الأول سنة خمس عشرة وسبعمائة.» ولا ريب في أنه تحريف في نسخة تحفة الأحباب التي بأيدينا، فإنها كثيرة الأغلاط، والصواب: «سنة خمس وعشرين وسبعمائة»، كما نقش على الباب، وهو تاريخ عمارة بالقبة، لا تاريخ بنائها؛ فإنها بنيت سنة وفاة الشيخ زين الدين، أي سنة ٦٩٧ كما سيأتي منقولًا عن المنقوش على باب الزاوية.

[٣] هو البحَّاثة المحقق أحد المراقبين بلجنة حفظ الآثار العربية بمصر، وله تآليف تشهد له بالدقة وسعة الاطلاع.

عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم الأمويُّ، قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه، انتقل إلى رحمة الله يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول، سنة سبع وتسعين [و] ستمائة.

ذنوبي غزار لا أطيق لحصرها وعفوك يا مولاي أوفا[4] وأزيد
وما هي ذنوبي أن أخاف وأنت لي إلهًا[5] ولي يوم الشفاعة أحمد»

انتهى. ولهذه القبة نافذتان في الحائط الجنوبيِّ نقش على إحداهما من الخارج البيت الأول من هذين البيتين، وعلى الثانية البيت الثاني، ولكن برسم «أوفى» بالياء و«إله» بالرفع.

(٢) الإيوان الجنوبي، وبه قبلة وقبر يقع شرقي باب القبة، قيل لنا: إنه قبر السيد محمد الواقف، لقِّب بذلك لوقفه أوقافًا على الزاوية على ما يزعمون، والغالب على الظن أنه القبر الذي قال عنه السخاوي في تحفة الأحباب، في كلامه على تربة زين الدين المذكور: «وبهذه التربة قبر بإيوان شرقي باب القبة، به الشيخ الصالح العارف بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد العدوي، أحد خلفاء الشيخ الصالح زين الدين أبي المحاسن يوسف، توفي في ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.»

(٣) صحن الزاوية الذي بين الإيوانات وهو غير مسقوف.

(٤) الإيوان الغربي، وبه قبران أحدهما قيل لنا إنه قبر الشيخ حسنين الغمري، والثاني قديم عليه تابوت من خشب منقوش فيه اسم المدفون به وتاريخ وفاته وهو أحد القادرية، وسيأتي الكلام عليه.

(٥) الإيوان الشرقي وبه قبران، قيل لنا إن أحدهما قبر الشيخ علي القشلان، وإنه دفن فيه من نحو خمس وأربعين سنة.

(٦) الإيوان الشمالي، وليس به شيء، وبدائر هذه الإيوانات الأربعة على ارتفاع قامة سورةُ يس مكتوبة بالجصِّ بحروف بارزة في سطر عريض به نقوش غاية في الإبداع، غير أنها غير تامَّة.

---

[4] كذا بالألف في آخره.

[5] كذا بالنصب.

(٧) باب الزاوية، وعلى وجهته لوح من الرخام مكتوب فيه بالحفر نسب الشيخ زين الدين وتاريخ وفاته وبناء القبة، وهذا نصُّ ما فيه على ما قرأه الأستاذ يوسف أحمد: «أنشأ هذه القبة المباركة على ضريح السيد الإمام العالم العارف المحقق، إمام الموحدين تاج العارفين زين العابدين أبي الشمائل، الشيخ زين الدين يوسف بن السيد الإمام العالم العارف القدوة شرف الإسلام غوث الأنام، الشيخ شرف الدين محمد بن السيد الإمام العالم العارف، شيخ الحقيقة ناصر السنَّة قامع البدعة ... أبي محمد شمس الدين الشيخ حسن بن السيد الإمام العالم العارف علم الأبرار غوث العباد تاج الزهَّاد، شيخ شيوخ الإسلام أبي الحسن شرف الدين عدي، ابن السيد الإمام العالم العارف الشيخ أبي البركات بن صخر بن مسافر بن إسماعيل بن موسى ابن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه، وكان انتقاله إلى دار الخلود وجوار الملك الودود في ثاني ساعة من نهار يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول، سنة سبع وتسعين وستمائة، ومما أنشده في حال عبوره:

ذنوبي غزار لا أطيق لحصرها وعفوك يا مولاي أوفى وأزيد
وما هي ذنوبي أن أخاف وأنت لي إله ولي يوم الشفاعة أحمد

وكان فراغ القبة في شهر شوال سنة سبع وتسعين وستمائة.» انتهى.

(٨) جزء من الساحة كان به المصلَّى وبشماليه كانت المئذنة.

(٩) جزء من الساحة كان به الميضأة والبئر وبيوت الخلاء.

(١٠) الباب المنفصل عن الزاوية الآن، وهو مطلٌّ على شارع القادرية، وبأعلى وجهته لوح من الرخام به نسب الشيخ زين الدين يوسف صاحب الضريح، ولكن به بعض اختلاف في الأسماء القديمة، مع إيصاله بعد مروان إلى يزيد بن معاوية، وبه اختلاف أيضًا في تاريخ الوفاة بيوم واحد، فإنها فيه يوم الاثنين رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٩٧، وفيه بعد ذلك أن الابتداء في هذا الباب كان سنة ٧٣٦، والظاهر أن هذا الباب وما كان متصلًا به من الأماكن زيادات حادثة أضيفت إلى الزاوية بعد بنائها، وما وقع من الاختلاف في النسب المنقوش عليه، فالظاهر أنه من تخليط بعض من كان يذهب إلى اتصال نسب الشيخ بيزيد. والله أعلم.

(١١) سلم حديث ينزل منه إلى الزاوية؛ لأنها أصبحت منحطة عن أرض الطريق.

(١٢) شارع القادرية، وهو شرقي الزاوية يفصلها عنه جزء من السور القصير الحديث الذي عليه الدرابزين.

ثم اعلم أن جماعة القادرية الذين نزحوا إلى مصر ونزلوا بهذه الزاوية وتولَّوا شئونها والنظر على أوقافها، كان من عادتهم دفن موتاهم فيها، كما رأيناه في تراجم من وقفنا على تراجمهم منهم، وتلك القبور التي بالإيوانات ليست إلا من بقايا قبورهم، ولكنها جهلت بذهاب ما كان مكتوبًا عليها أو باشتهارها بمن دفن من غيرهم فيها، ولم يبق من قبورهم معروفًا إلا قبر واحد، وهو أحد القبرين اللذين بالإيوان الغربي، فإن الشمالي منهما مشهور بالشيخ حسنين الغمري، والله أعلم بصحته، والجنوبي عليه تابوت من الخشب مكتوب عليه بالحفر ما نصه، مع المحافظة على رسم الكلمات: «توفَّا العبد الفقير إلى الله تعالى السيد محمد بن الشيخ علي بن الشيخ حسين بن السيد شمس الدين محمد بن الشيخ حسام الدين شرشيق بن الشيخ عبد العزيز بن السيد الحسيب النسيب ... الفرد الحاج محيي الدين عبد القادر الكيلاني الحسني، توفًّا ليلة السبت سنة أربع وأربعين وثمانمائة.» هكذا رأيته منقوشًا على التابوت، وفي الدرر الكامنة في ترجمة محمد بن شرشيق زيادة «محمد» بين شرشيق وعبد العزيز.

ولم يذكر السخاوي في تحفة الأحباب أسماء مَن دفن من القادرية بهذه الزاوية، وإنما أشار إليهم بقوله: «وبها قبور السادة الأشراف من أولاد علم الأولياء الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني، نفع الله تعالى ببركتهم.» ولكنه ذكر ذلك في تراجم من ترجمهم منهم بالضوء اللامع، وقد استطعنا معرفة ستة منهم، وهم:

الأوَّل: محمد بن علي بن حسين بن محمد الأكحل بن شرشيق القادري، قال: إنه توفي بالطاعون سنة ٨٤٠ ودفن بزاوية عدي بن مسافر، بالقرب من باب القرافة، ويظهر من اسمه ونسبه أنه صاحب القبر الباقي معروفًا من قبورهم بالإيوان الغربي، لولا الاختلاف في الوفاة بين سنة ٨٤٠ و٨٤٤ فليحقق، وأما جدُّه محمد بن شرشيق فله ترجمة في الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر، جاء بها أنه ولد سنة ٦٥١ وحدَّث بدمشق وبغداد والحيال (بالحاء المهملة والياء، آخر الحروف بلدة بسنجار) وتوفي سنة ٧٣٩، ولم يذكر أنه قدم إلى مصر، فالظاهر أن أوَّل القادمين إليها أحد أولاده أو حَفَدته، ثم قال الحافظ: وأولاده الحسام عبد العزيز والبدر حسن والعز حسين والظهير أحمد، ولكنه لم يترجم لأحدٍ منهم. وله ترجمة في المنهل الصافي لابن تغرى بردى قال فيها إن له أيضًا أولادًا آخرين.

الثاني: ابنه موسى بن محمد بن علي بن حسين بن محمد بن شرشيق، قال إنه توفي بالطاعون سنة ٨٤١ بعد أبيه بيسير جدًّا، ودفن بزاوية عدي بن مسافر بالقرب من باب القرافة.

الثالث: ابن هذا، زين العابدين محمد بن موسى بن محمد بن علي شيخ الطائفة القادرية، قال إنه مات سنة ٨٥٥ بعد تعلُّل مدة طويلة، وصُلي عليه بمصلى المؤمني في محفل شهده أمير المؤمنين لصداقة كانت بينهما، ثم رجعوا به إلى زاوية عدي بن مسافر محل سكناه من باب القرافة، فدفن عند أبيه وجده، وذكر بعده أخاه شمس الدين محمد بن موسى بن محمد، وقال إنه استقر بعده شيخًا شركة لابن عمهما ومات سنة ٨٨٨، ولكنه لم يذكر أنه دفن معهم بهذه الزاوية.

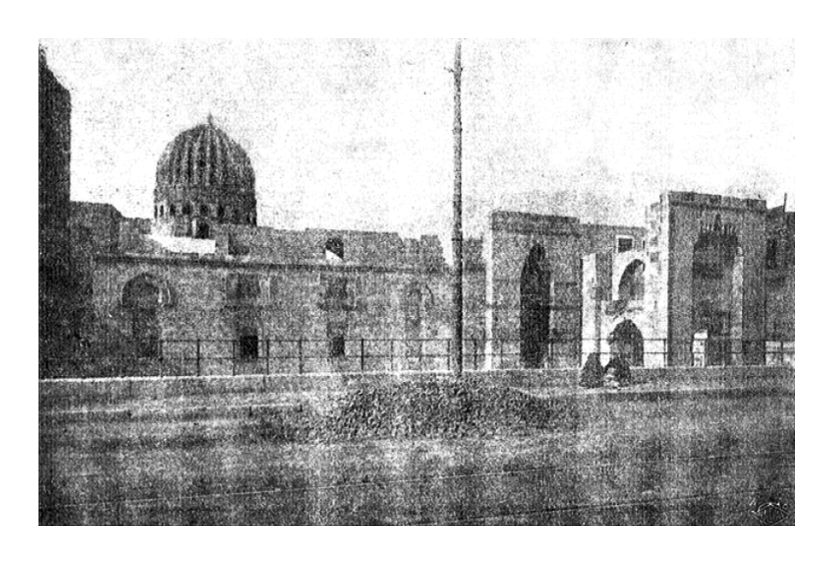
الرابع: حسن بن محمد بن عبد القادر بن علي بن محمد الأكحل بن شرشيق القادري، قال عنه: كان أسنَّ الجماعة المقيمين بهذه الزاوية، توفي سنة ٨٦٧ ودفن بها.

الخامس: أخوه علي بن محمد بن عبد القادر شيخ القادرية، قال إنه توفي سنة ٨٥٣، دفن بمحل سكنه بالتربة المعروفة بعدي بن مسافر من القرافة الصغرى، وترجمه أيضًا في وَفيات هذه السنة من التبر المسبوك، وقال إنه دفن بهذه التربة وكانت محل سكنه.

السادس: ابن هذا عبد القادر بن علي بن محمد بن عبد القادر بن علي بن محمد بن شرشيق، قال إنه توفي سنة ٨٧٩، ودفن بزاوية عدي بن مسافر محل سكن بني عمِّه من القرافة.

هؤلاء مَن استطعنا معرفتهم، وقد يكون ذكر غيرهم ففاتنا تقييدهم، وقد بقي نظر هذه الزاوية بيد هذه السلالة إلى عهد قريب، حتى شرعت لجنة حفظ الآثار العربية في ترميمها بعد الحريق الذي وقع بالقبة، فأضيف نظرها إلى ديوان الأوقاف، وبالزاوية الآن عجوز من الصالحات تزعم أنها من بقايا هؤلاء القادريين، تقوم بخدمتها وتنظيفها هي وابنتها، وهو المقيد بهذه الخدمة في ديوان الأوقاف، ويسكنان في دُوَيْرةٍ ملحقةٍ بالزاوية.

وقد أطلنا بهذا الاستطراد، حيث لم نجد بدًّا من الإطالة؛ لأنا لم نر مَن حقق أمر هذه الزاوية بمثل هذا التفصيل.



صورة الزاوية بعد الترميم، والباب الذي عليه الرقم «١٠» هو الباب المنفصل عن البناء.

فصل في جماعة آخرين من آل عديٍّ بن مسافر

عثرنا عليهم مفرَّقين في كتب التراجم، وليس لأكثرهم علاقة بهذه النِّحلة، ولكنا آثرنا ذكر ملخص تراجمهم توفيةً لأخبار هذه الأسرة وللإعلام بأن بعض أفرادها لم يكن يمتُّ إليها إلا بصلة النسب لا المعتقد.

أولهم: أحمد بن رجب بن محمد بن عثمان بن جميل بن محمد بن أحمد بن عثمان بن سعادة ابن عيسى بن موسى بن أبي البركات بن عدي بن مسافر، هكذا ساق نسبه السخاوي في الضوء اللامع في ترجمة ولده إبراهيم، وقوله: «ابن عدي بن مسافر.» خطأ إما ممن نقل عنه هذا النسب، أو من ناسخ نسخة الضوء، والصواب أن أبا البركات «ابن أخي عدي بن مسافر» واسم أبيه صخر بن مسافر كما تقدَّم، وكان أحمد هذا من البقاع ثم سكن دمشق، ومات في فتنة التتار سنة ٨٠٣.

الثاني: ابنه إبراهيم بن أحمد بن رجب، ويعرف بابن الزهريِّ؛ لكونه سبط الشهاب الزهري، بل يجتمع معه في «أحمد بن عثمان» أحد الجدود، ولد سنة ٧٧٧، واشتغل قليلًا ووِلِي قضاء صيدا، وكتابة سرِّ صفد وقضائها وغير ذلك، ومات سنة ٨٤٠، وكان جيِّد العقل، ولم يكن به عيب أعظم من قلَّة العلم، كذا في الضوء اللامع.

الثالث: ابن هذا أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن رجب، ويعرف أيضًا بابن الزهري، ولد سنة ٨٠٦ ببقاع العزيز، وانتقل مع والده إلى دمشق فنشأ بها وأخذ عن كثيرين، ثم سافر إلى القاهرة وناب في القضاء بها، وباشر القضاء في عدَّة أماكن كالرملة وحماة وطرابلس وغزَّة وحلب، فلم تحمد سيرته، ومات سنة ٨٧٨ بلا عقب. عن الضوء اللامع أيضًا.

الرابع: الشهاب الزهري جدُّ إبراهيم بن أحمد بن رجب لأمه، وقد تقدم قول السخاوي أنه يجتمع معه أيضًا في «أحمد بن عثمان». وعثمان هذا هو ابن سعادة بن عيسى بن موسى بن أبي البركات بن صخر بن مسافر، ولم يترجمه السخاوي في الضوء، وإنما ترجم أحد المشهورين بالشهاب بن الزهريِّ، وهو أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد، واقتصر في سلسلة نسبه على هذه الأسماء، وقال: إنه مات سنة ٨٣٣. ويبعد على هذا أن يكون جدًّا لإبراهيم بن أحمد، وفي الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر ترجمة لأحمد بن صالح بن أحمد بن خطاب البقاعيِّ شهاب الدين المعروف بالزهري، المتوفى بدمشق سنة ٧٩٥، فيحتمل أن يكون إيَّاه.

الخامس: أحمد بن محمود بن عبد السلام بن محمود خطيب صَرَفَنْد العدويُّ، من ذرية أبي البركات بن صخر بن مسافر البقاعي البَيْتفاري نسبةً إلى بيت فار، قرية الشيخ عدي بالبقاع، ترجمه البقاعي في كتابيه عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، ومختصره عنوان العنوان، فذكر أنه ولد سنة ٧٨٢ وتوفِّي بدمشق سنة ٨٦٨، وساق بعض أخباره وأسماء من أخذ عنهم، وله ترجمة في الضوء اللامع للسخاوي أيضًا.

السادس: ابنه محمد بن أحمد بن محمود بن عبد السلام العدويُّ الدمشقيُّ، ترجمه السخاويُّ في الضوء وقال: ولد سنة ستٍّ أو سبع وثمانيمائة، وكان من وجوه الناس وأعيانهم، ونظم الشعر ووليِّ نظر قلعة دمشق مدَّةً ثم أعرض عنها، بل عرض عليه غيرها فأبى ومات سنة ٨٧٤.

وليس في أخبار هؤلاء الستة ما يُشعر بنزوعٍ إلى نزعةٍ صوفيَّةٍ حميدةٍ أو غير حميدةٍ، فالظاهر أنهم كانوا بعيدين عن الطريقة العدوية وما طرأ عليها.

السابع: شمس الدين محمد بن موسى بن محمد العدويُّ نسبة إلى آل عدي بن مسافر من قبل جدِّه لأمه، وكان من علماء القرن العاشر، ترجمه ابن طولون في ذخائر القصر، فذكر أنه كان أحد العدول القاطنين بمحلة الجسر الأبيض من صالحيَّة دمشق، ثم قال: «لبس مني خرقة التصوُّف العدوية، وقلت له: لبستها عن جماعة من فضلاء عصري ونبهاء دهري.» وساق سلسلة هذه الخرقة إلى الشيخ عدي بن مسافر، ثم ذكر مَنْ قبله إلى النبي ﷺ كعادة أصحاب الطرق في أسانيدهم، قلنا: ويعلم من انتماء مثل ابن طولون إلى هذه الطريقة أنها حُفظت عند بعض الصوفية صافية خالية مما أصابها من طائفة الشيخ عدي حتى بعدوا بها عنه، بل وعن الإسلام.

وبعد فلنعد إلى ما قصدناه من بيان منشإٍ هذه النِّحلة وتكوين هذه الطائفة بعد أن أتينا على ما استطعنا الوصول إليه من أخبار الشيخ عدي وأخبار آله.

فصل في منشإِ نحلتِهم وتكوين طائفتهم

لا يخفى أن الغالب في كثير من النِّحل والمذاهب أن يطرأ عليها التغيير والتبديل بعد ذهاب الداعين إليها؛ إما بالابتداع فيها أو بتغيير النصوص أو بتأويلها، على حسب ما توحيه الآراء وتزينه الأهواء، والشواهد على ذلك كثيرة تكاد لظهورها تُحسُّ وتتقرَّاها الأيدي باللمس، غير أن التغيير يختلف قلَّةً وكثرة تبعًا لأميال المهيمنين على المذهب وأغراضهم واستعداد نفوس متَّبعيهم، وهو عين ما طرأ على مذهب اليزيدية، فإنهم لم يكونوا في مبدإ أمرهم سوى طائفة من الصوفية، لهم طريق خاص كالحال في سائر طوائف القوم، غير أنهم غلَوا في شيخهم غلوًّا تجاوز الحدَّ وأدَّى إلى قولهم فيه بما لا يوافق شرعًا ولا عقلًا، ثم قام فيهم رؤساء السوء الطالبون للحطام من طريق الرئاسة، فتوسَّعوا في مذهبهم وأدخلوا فيه ما اقتضته مصلحتهم ووافق أهواءهم، وما زالوا ينقصون منه ويزيدون فيه قرنًا بعد قرنٍ حتى خرجوا من الإسلام جملةً.

ولم يكن لهذه الطائفة وجود ولا ذكر في التاريخ قبل القرن السادس، حتى اشتهر الشيخ عدي بن مسافر بالزهد والورع وكثرة المجاهدة، وتسامع به الناس فقصدوه من الأطراف للاسترشاد، ثم انتقل إلى جبال هكَّار موطن الأكراد فتبعه منهم خلقٌ كثير، اتَّخذ منهم المريدين وأحدث الطريقة العدوية كما مرَّ بك في أخباره، ولم يكن على شيء مريب في طريقته وإلا لما أثنى عليه كل الذين كتبوا عنه، وحسبنا أن الإمام أحمد بن تيمية المشهور بتشدُّده لم يذكره إلَّا بالخير في رسالة له سيأتي شيء منها، وإنما بدأ فيهم الزيغ بعد موته في رئاسة الشيخ حسن عليهم أو قبله بقليل، وقد تقدَّم أنه كان لا يهتم إلا بحفظ ناموسه، مع انطوائه على منكرات أخذها عليه الذهبي وغيره، ولما فشا فيهم الانحراف وشاع عنهم كتب إليهم الإمام ابن تيمية الرسالة العدويَّة التي أشرنا إليها، وهي طويلة بناها على النصح والإرشاد إلى طريق السنة، والحضِّ على التمسك بها،

وتعرَّض فيها لما كانوا عليه في زمنه فحذَّرهم من البدع والغلوِّ في المشايخ، كما غلوا في الشيخ عدي، ومن قوله في هذا الصدد: «وفي زمن الشيخ حسن زادوا أشياء باطلة نظمًا ونثرًا، وغلوْا في الشيخ عدي وفي يزيد بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدي الكبير قدَّس الله روحه، فإنَّ طريقته كانت سليمة، لم يكن فيها من هذه البدع، وابتلوا بروافضَ عادوهم وقتلوا الشيخ حسنًا، وجرت فتن لا يحبها الله ولا رسوله.»

فيتضح من هذا ومما تقدَّمه أصل منشإٍ هذه الطائفة، وأنها كانت تسمَّى في أوَّل الأمر بالعدوية نسبة إلى شيخها، أما تسميتها بعد ذلك باليزيدية فلم نقف على زمنها، والظاهر أنها حدثت في القرون الأخيرة، ولعلَّ موالاة البحث تكشف عنها فيما بعد.

فصل في منشإِ اعتقادهم في يزيد

تولَّى يزيد بن معاوية الخلافة على كراهة من كثير من المسلمين، ثم وقعت في زمنه كوائن كقتل الإمام الحسين عليه السلام، والعدوان على أهل المدينة، ونقلت عنه أمور من الاستهانة بالدين، والاستهتار بالشراب أكثرت فيه القال والقيل، وتسبب عن ذلك تشعب الآراء فيه، فذهبت الشيعة فيه مذهبًا معروفًا، وافترق أهل السنة؛ فمنهم من غالى في بغضه وأجاز لعنه، ومنهم من اقتصد ومنهم من خالف وحسَّن الظن، وكان من هؤلاء الشيخ عدي بن مسافر، فقد ظفرنا بنسخة عتيقة من عقيدته ناقصة من آخرها، رأيناه يقول فيها: «وإنَّ يزيد بن معاوية رضي الله عنه إمام وابن إمام، وَلِي الخلافة وجاهد في سبيل الله، ونقل عنه العلم الشريف والحديث، وأنه بريء مما طعن فيه الروافض من أجل قتل الحسين رضي الله عنه، وغير ذلك منبوذ ومهجور الطاعن فيه.» فمن هذا القول نشأ اعتقاد اليزيدية في يزيد، فإنهم تولَّوه أوَّلًا تبعًا لرأي شيخهم، ثم جروا فيه على ما جروا عليه من الغلوِّ في غيره، فجعلوه وليًّا ثم نبيًّا، وما زالوا به حتى اتخذوه إلهًا من الآلهة السبعة حين تمادوا في الضلال واستغرقوا في السخافات والأوهام.

وقد تعرَّض لذلك الإمام ابن تيمية في الرسالة العدوية، ولم يكونوا بلغوا به في زمنه غير مرتبة النبوَّة، فقال: «اعتقد بعضهم أنه كان من الأنبياء، ويقولون: مَن وقف في يزيد وقفه الله على نار جهنم، ويروون عن الشيخ حسن بن عدي أنه كان كذا وكذا وليًّا، وقفوا على النار لقولهم في يزيد.» وقد أطال في هذا الموضوع وبيَّن افتراق الناس فيه بين محبٍّ ومبغضٍ وما نشأ عن تمسك كلِّ فريق برأيه من المغالاة، حتى جعله بعضهم كافرًا زنديقًا، والبعض من أئمة الهدى وكبار الصلحاء بل الأولياء، وذكر أن منشأ الاعتقاد بصلاحه كراهة بعض أهل السنة لِلَعنه، فظنَّ قوم ممن يتسنَّن أن ذلك بُني على صلاحه

فاعتقدوه، ثم بيَّن لهم خطأ الفريقين، ونصحهم باتباع الأولى وهو الاقتصار فيه على أن لا يُسبَّ ولا يُحبَّ.

فصل في منشإِ اعتقادهم في الشيطان

ليس في عقيدة الشيخ عدي ما يخالف الأصول المعروفة في عقائد أهل السنة والجماعة، وقد تصفحناها فلم نَشْتَمَّ منها رائحةَ رأي في الشيطان يُخَرَّج اعتقاد اليزيدية عليه، بل رأيناه فيها بالعكس، يكثر من لعنه وينحي على من يزعم أنَّ الخير من الله تعالى والشرَّ من إبليس، وعلى من تغالَوْا فقالوا: إرادة إبليس فوق إرادته تعالى، فترى من هذا أن مذهبهم في الشيطان غير مبنيٍّ على قولٍ لشيخهم كما بُني مذهبهم في يزيد، بل هم فوق ذلك مخالفون ومضادُّون لرأيه فيه، ولم يشر الإمام ابن تيمية في الرسالة العدوية إلى شيء من ذلك، فالظاهر أنهم جنحوا إلى هذا الرأي بعد زمنه، ولعلَّه نشأ من أحدِ من تولَّى زعامتهم من المشايخ، وإليك ما ظهر لنا بعد ذلك:

قد تقدم أن اليزيدية لم يكونوا إلا طائفة من الصوفية، ثم صاروا من غلاتهم وما زالوا يتمادون في الغيِّ حتى باينوا جميع الفِرق الإسلامية وخرجوا من الإسلام جملة، ولا يخفى أن لِغلاة الصوفية من الآراء الشاذَّة والكلمات الموهمة ما لا يحتمل ظاهره، ينطقون بها في أحوال تعرض لهم يسمونها بالغلوِّ أو الشطح أو غير ذلك، ويحملها بعضهم على خلاف ظاهرها بضروب من التأويل ليس من موضوعنا الخوض فيها، وقد أشار أبو حفص عمرو بن محمد السُّهْرَوردي في عوارف المعارف عند كلامه على الخلوة إلى ما يقع لبعض الصوفية من الزيغ، وذكر أن ما يفتح به على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببًا لمزيد بُعده وغروره وحماقته، وأنه لا يزال حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه، وينكر الحدود والأحكام إلى آخر ما قال.

ومن تلك الآراء ما ذهب إليه بعضهم من التعصُّب لإبليس وتبرير عمله في عدم السجود لآدم عليه السلام، بل نُسب هذا القول لبعض كبارهم، ومنه ما رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة حيث قال: وكان أبو الفتح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ أخو أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي قاصًّا لطيفًا وواعظًا مفوَّهًا، وهو من خراسان من مدينة طوس، قدم بغداد ووعظ بها، وسلك في وعظه مسلكًا منكرًا؛ لأنه كان يتعصَّب لإبليس ويقول: إنه سيِّد الموحدين، وقال يومًا على المنبر: من لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق، أمر أن يسجد لغير سيده فأبى.

ولست بضارعٍ إلا إليكم وأمَّا غيركم حاشا وكلَّا

وقال مرةً أخرى: لمَّا قال له موسى أرني فقال لن، فقال: هذا شغلك تصطفي آدم ثم تسوِّد وجهه وتخرجه من الجنة، وتدعوني إلى الطور ثم تشمت بي الأعداء، هذا عملك بالأحباب فكيف تصنع بالأعداء؟ وقال مرة أخرى وقد ذكر إبليس على المنبر: لم يدر ذلك المسكين أن أظافر القضاء إذا حكَّت أدمت، وأنَّ قسيَّ القدر إذا رمت أصمت، ثم قال لسان آدم ينشد في قصته وقصَّة إبليس:

وكنت ولَيْلَى في صعود من الهوى فلمَّا توافينا ثبتُّ وزلَّتِ

وقال مرة أخرى: التقى موسى وإبليس عند عقبة الطور، فقال موسى: يا إبليس، لِمَ لمْ تسجد لآدم عليه السلام؟ فقال: كلا ما كنت أسجد لبشر، كيف أوحِّده ثم ألتفتُ إلى غيره؟ ولكنك أنت يا موسى سألت رؤيته ثم نظرت إلى الجبل، فأنا أصدق منك في التوحيد. وكان هذا النمط في كلامه ينفق على أهل بغداد وصار له بينهم صيتٌ مشهور واسم كبير. إلى أن قال: «وهذا نوع تعرفه الصوفيَّة بالغلوِّ والشطح، ويروى عن أبي يزيد البسطاميِّ منه كثير.» انتهى.[١]

[١] نقل سبط ابن الجوزي عن أبي الفتح أحمد الغزالي أمثال هذه الأقوال في مرآة الزمان، عند ذكر وفاته سنة ٥٢٠، ثم حكى عن جدِّه الإمام ابن الجوزي تعجبه من هذا الهذيان، وكيف نفق في بغداد وهي دار العلم.

أما تسميتهم له بطاووس ملك، وقولهم في «مصحف رش»، أي الكتاب الأسود: أول يوم خَلق الله فيه هو يوم الأحد، وخَلق فيه ملكًا اسمه عزازئيل، وهو طاووس ملك رئيس الجميع، فله أصلٌ أيضًا وهو ما يروى في قصص الأنبياء وبعض التفاسير من أن إبليس كان يسمَّى في السماء السابعة بعزازئيل، وأنه كان مجتهدًا في العبادة حتى لم يترك من السماوات والأرضين موضع شبر إلا سجد فيه فسمِّي لذلك طاووس الملائكة، وأنه كان سيِّد الكَرُوبيين والروحانيين ورئيس خزنة الجنة.

النتيجة

فتبين مما تقدم أن تكوين هذه الطائفة كان على يد الشيخ عدي بن مسافر في القرن السادس، وأنها سميت بالعدويَّة نسبة إليه، ثم تسمت بعد ذلك باليزيدية، وأن منشأ اعتقادهم في يزيد بن معاوية من شيخهم هذا، فلا صلة له بيزيد بن أبي أنيسة ولا بنِحلته كما توهمه بعض الباحثين، وأن طريقتهم تقلبت بعد ذلك في أطوار؛ فبدأ فيها الانحراف في زمن الشيخ حسن بن عدي بن أبي البركات، ثم توالى عليها النقص والزيادة والتغيير والتبديل قرنًا بعد قرن حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، ولعلَّ فيما ذكرناه ما يزيل الالتباس ويوضح الغموض الذي تكنف هذه النِّحلة الغريبة، ومنتحليها، فترك الناس في عمياء من أمرهم حقبًا طويلة.

والله أعلم.